المؤثـرات الفاعلـة في التراكيب اللغويـة

(دراسة موجزة عن طبيعة الذات اللغوية للسـان العـرب)

د. / لطيف الخياط(*)

ملخص البحث:

تعتبر اللغة المحور الرئيسي (من بين أمور أخرى) الذي ترتكز عليه ثقافة وتراث أي أمة حية. وهناك مؤشرات كثيرة تبين أن اللغة العربية في الوقت الحاضر تعاني الكثير من التغيرات السلبية المتشائمة لبعض اللغويين والأدباء كنتيجة حتمية للتبدلات السريعة التي يشهدها العالم في مجالات عديدة من أساليب الحياة اليومية وبالذات تأثير تلك التبدلات على اللغة التي تلازمنا أبديا كوجود حي تنعكس عليه كل المردودات اليومية وتقلباتها المستمرة.

نعتقد أن أكثر العوامل «الطبيعية» المؤثرة في اللغات تعطي نتائج سطحية نسبيا تتماشى مع التبدلات الطبيعية التي تمس كل جوانب الحياة ومنها اللغة المنطوقة. ومثل هذه النشاطات الفاعلة تعتبر أمرا مفرغا منه. وتشمل هذه التبدلات اللغوية ما يأتي:

1 ـ دخول مفردات قادمة من خارج اللغة الأم في أكثر الاستعمالات اللغوية اليومية دون تبدل جوهري في تراكيبها ومعانيها.

2 ـ النطق وعملية الكلام وما يصاحب ذلك من تراكيب نغمية ونبرات غريبة على مستوى المفردة والعبارة والجملة وحتى «النظم» النحوية والصوتية السطحية "Surface Structure".

3 ـ المعالم الدلالية ومعاني المفردات المتغيرة بتغيير المفاهيم والمصطلحات المستعملة يوميا.

4 ـ الأساليب اللغوية العامة التي تشمل طريقة الكلام والخطابة والأساليب الأدبية مثل أساليب الشعر والنثر.. إلخ.

ونعتقد كذلك أن الواقع اللغوي الموضوعي الأكثر عمقا ونعني هنا النظم اللغوية الأساسية الخاصة "Deep Structures" المعروضة ضمن النظرية التوليدية التحويلية في علم اللغة الحديث تكون ثابتة نسبيا وما يدخل في النتائج اللغوية المنطوقة لتطبيق قوانين هذه النظم سليقيا يمكن أن يكون في دائرة المتغيرات

(*) جامعة بغداد / العراق ـ جامعة عمان / الاردن

الطبيعية. كذلك يحاول البحث مناقشة ما افترضناه علميا وحسب النتائج التي توصلنا إليها مع إيجاد الحلول العملية لبعض الأسئلة «المتواردة» وطرح المقترحات للحفاظ على لغتنا الأدبية ـ المكتوبة والمنطوقة من التحديات القاسية والتطور والتبدل السريع لنمط الحياة وبالتالي للكثير من مفاهيمنا اللغوية.

مقـــدمـــة:

هناك مؤشرات لغوية عديدة في الوقت الحاضر تعاني الكثير من التفسيرات السلبية المتشائمة نتيجة للتبدلات السريعة التي شملت مختلف مجالات الحياة اليومية، وأكثر هذه التفسيرات جاء كرد فعل طبيعي من الذين يحرصون على اللغة العربية والحفاظ عليها من عاديات الدهر وخوفا من كل ما يسيء إلى هذه الأمة ولغتها الخالدة.

في بحثنا الموجز هذا سنتناول الوحدات اللغوية على المستوى الصوتي ومستوى تشكيل المفردات وتراكيبها التي تتأثر بالعوامل الخارجية والداخلية وعمق هذه التأثيرات والتبدلات التي يمكن أن تحصل في اللغة ومدى جدية ما يحصل فعلا. كذلك سنحاول التطرق إلى العوامل غير الطبيعية التي تقف ضد الأسس والضوابط اللغوية الطبيعية بغية طمس معالمها أو استبدال نظمها بنظم مصنعة بتخطيط مسبق ومنسق للنيل من الثوابت الحضارية والتراثية عن طريق اللغة العربية وبالتالي أمة العرب.

المفهوم العام للغة الطبيعية:

إن المفهوم العام للغة يتلخص بأنها بنية معلوماتية طبيعية معقدة التراكيب مكونة من تشكيلات تجريدية متداخلة ومتشابكة تعمل ضمن نظم متطورة في أساليب تطبيقها السليقي لتوصلنا إلى المكونات والتراكيب التواصلية وتظهر لنا كلاميا تنعكس في أكثر اللغات صوريا بشكل كتابي تعرف وحداته التوصيلية بالكلمات والعبارات وبالتالي الجمل المكتوبة. وهي في الواقع حصيلة عملية التطبيق السليقي لمجموعة من القواعد المحددة على مستوى المكونات اللغوية والتي يمكن أن نسميها «أطر» أو «نماذج» "Patterns" صوتية وصرفية ونحوية. وكل إطار أو نموذج قواعدي يحمل مواصفات مميزة في الدقة المعلوماتية تعمل على إنتاج عدد غير محدد من الوحدات الكلامية التي تدخل في العبارة والجملة المقبولة منطقيا وهي في العادة مشتقة من النتاج الوظيفي للنظم اللغوية الثلاث المعروفة بالنظم الدلالية والصوتية والنحوية إلى حد ما، وتقع اللغة العربية ضمن هذه المفاهيم اللغوية.

بناء على ذلك تكون للغة العربية قابلية تعبيرية يمكن أن توصف بأنها فائقة في الدقة وبالإنتاجية اللامتناهية لأنها لغة طبيعية حية حسب مفهومنا الذي ورد أعلاه. حيث أن أية لغة حية لا تقاس فاعليتها بعدد كلماتها فحسب وإنما بحركتها التوليدية الطليقة ضمن ضوابط النظم الثلاث أعلاه والتي لا تقف عند حد سواء على مستوى المفردة أو العبارة أو الجملة. وهذه الفاعلية المنتجة والتي لا تتوقف عبر الأجيال هي في الواقع حصيلة للعدد المحدود من النماذج اللغوية الصرفية/الصوتية والنحوية والدلالية. فالاشتقاق في اللغة العربية مثلا صفة دائمة من العطاء في تركيبة المفردات. كذلك

القواعد النحوية والدلالية التي تعمل على ديمومة العطاء للعبارات والجمل المستجدة اللامتناهية وهي صفة للغتنا مستمرة مع الحياة في الماضي والحاضر وستبقى كمصدر توليدي صفته العامة الاستمرارية في الانتاج والتجديد، لهذا فلقد ورثنا واحدة من أغنى اللغات الطبيعية المعروفة على المستوى الكلامي والكتابي والتي زودتنا بكل ما يسهل عملية التواصل اللغوي وجعلت نقل الفكرة والمعلومة إلى الآخرين عملية طبيعية سلسلة لا لبس فيها.

الثوابت والمتغيرات في اللغة الطبيعية:

إن البحوث اللغوية الحديثة تتركز على النظام الدلالي كونه النواة التي تتمحور حولها النظم والأطر النحوية والصرفية والصوتية والتي بدورها تلعب دور البنية الأساسية في تقرير شكل ومعنى المفردة وبالتالي عملها ومكانها اللغوي في العبارة أو الجملة (Cf. Jackendoff pp.4-10). وهكذا فإن الدراسات الدلالية الحديثة لأية لغة طبيعية هي في الواقع دراسة التراكيب والمكونات الفكرية لتلك اللغة وإن مهمة النظم اللغوية وأطرها هي تزويد الهيكل الأساسي المنظم لهذه الأفكار وإخراجها إلى واقع الحال كمجموعة من المعلومات المنطوقة إنسيابيا (Ibid; cf. Lackoff p.25) وبالتالي تكتب حسب نظم موضوعة لهذا الغرض بتميز تراثي عميق نطلق عليه لفظة «لغة». لذا نرى أن الواسطة المسؤولة عن كيفية سير عملية التواصل اللغوي بين أبناء المجتمع هي في الواقع تدور حول المحور الدلالي.

وفي هذا المجال يمكن أن نتطرق إلى الثوابت والمتغيرات في التراكيب اللغوية التي هي في الواقع حصيلة التطبيق غير الواعي للنظم الثلاث آنفة الذكر. وهكذا نرى أن الأطر أو النماذج القواعدية تعمل تكافليا على البنية القاعدية (البنية العميقة Deep Structure) والتي تقع ضمن الثوابت اللغوية. وأن ما ينتج عن عمل هذه الأطر يعرف بالكلام (وما يقابلها تمثيلا يعرف بالكتابة) وهو الناتج السطحي الأخير المعرض للتأثيرات الخارجية وهو ما نطلق عليه بالمكونات اللغوية القابلة للتغير نسبيا. إن عملية النطق هذه لا يمكن أن تتم دون أن يكون للدماغ ونظم الأعصاب دور فاعل مع العلاقة الوثيقة بالعضلات وتحركها في كل مرحلة من مراحل عملية النطق. ومن الطبيعي فإن كل تغيير ولو جزئي في أية مرحلة يكون ناتجا عن حصيلة ظواهر عاملة ومؤثرة تؤدي بدورها إلى التأثير في اللغة وتغير بعض معالمها النطقية.

ولتوضيح ما جاء أعلاه كحالة لغوية طبيعية نعيشها كجزء من الحياة اليومية، نرجع إلى نظم المكونات اللغوية الثلاث وهي الدلالية والصوتية والنحوية وهامشيا الصرفية المتداخلة مع المكونات الثلاث، لتكون تركيبة متشابكة عمليا يصعب فصلها عن بعضها البعض إلا نظريا لتسهيل عملية البحث العلمي ولإعطاء الدراسات اللغوية الحديثة بُعدا علميا كما هو الحال في دراسة مكونات أي مادة في الطبيعة لتشمل تفاصيل دقيقة متميزة من ناحية عملية التكوينات والتراكيب الفاعلة لغويا. علما أن توارد هذه النظم ليس بالضرورة ثابتة الترتيب وذلك لتداخل عملها كما جاء أعلاه وكما هو مبسط في الشكل التخطيطي التالي (الشكل 1):

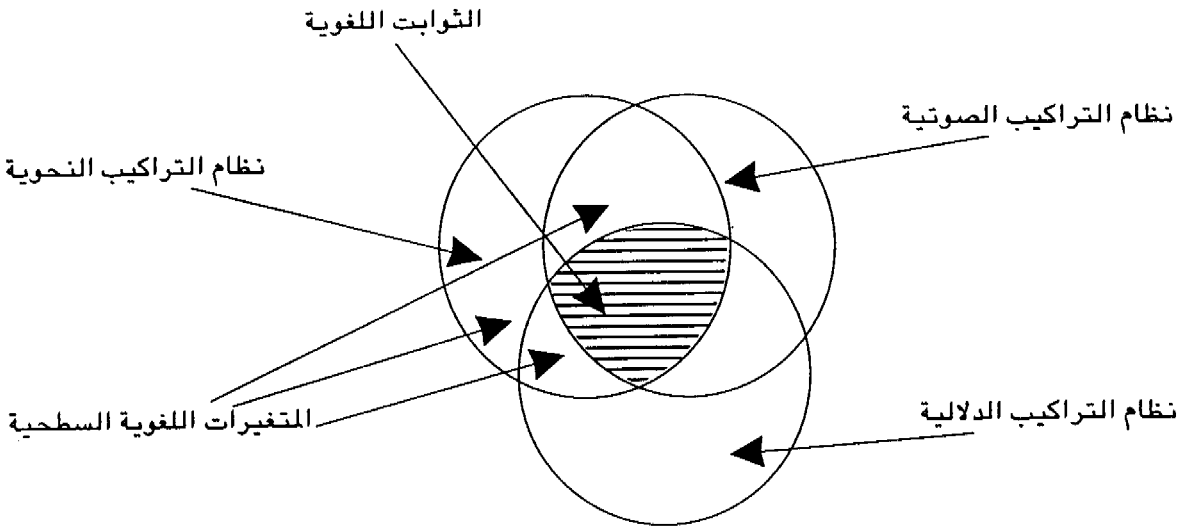

الشكل 1: النظم اللغوية الثلاثة وتداخلها مع بعضها نسبيا لتكون الثوابت والمتغيرات في أية لغة طبيعية.

الشكل أعلاه يبين تداخل النظم اللغوية الثلاث وإلتقائها في المنطقة المشتركة الداكنة والتي تمثل منطقة الثوابت اللغوية أو ما يُعرف بالبنية التحتية أو القاعدية وما سواها في التداخلات وخوارجها تعرف بالمتغيرات اللغوية النسبية. نلاحظ هنا أنه كلما ابتعدت الحدود عن بعضها تقل نسبة التداخلات الفاعلة وبالتبعية تصبح احتمالية التعرض للظواهر المؤثرة أكثر حدوثا نسبيا. هذا يعني دخول أصوات ومفردات غريبة وعبارات بمعاني غير مألوفة إلى اللغة العربية (لاحظ الملحق 1-2) وتكون الإحتمالية أكثر منها عن المناطق المتشابكة تقاربيا حتى تصل باتجاه مركز التلاقي إلى منطقة «المحرمات» وهي منطقة الثوابت اللغوية المؤشر عليها في الشكل أعلاه والتي لا تسمح دخول أية صفة لغوية غريبة إلى منطقتها.

بالطبع مثل هذه التغيرات إن حدثت فتكون بسبب عوامل مختلفة تأخذ أبعادا في الزمان والمكان وحسب عمق التبدل الحاصل. فلو تعمقنا أكثر في الموضوع نجد أن الثوابت تمثل التراكيب الأساسية أو التحتية والتي تعتبر مصدر كل ما هو منطوق وبالتالي مكتوب ضمن الحدود القومية والتراثية للغة ما. في الواقع إنّ التغيرات الاجتماعية والفجوات الزمنية التي تفصل الأجيال تأتي في مقدمة العوامل المؤثرة في التغير اللغوي. وهذا بالتبعية يوثر على الثقافة وحركتها في البلد وبالتالي يتأثر التراث للعلاقة الوثيقة بين الاثنين.

المكونات اللغوية الأكثر تعرضا للعوامل المؤثرة:

لو نظرنا مرة أخرى إلى الشكل (1) لاتضح أن المتغيرات اللغوية في حالة حدوثها تكون على المستوى الصوتي في أكثر الحالات وبالتالي تشمل المفردة لتدخل المجال الصرفي وبما أن هذا الأخير مرتبط جذريا بالنحو والمعنى الدلالي فعليه تدخل التبدلات المجالات اللغوية الثلاث تحت مظلة

التأثيرات الواردة إليها حسب بعدها عن البنية القاعدية أو التحتية المشتركة بين النظم الثلاث.

جدول (1) * يوضح التبدل الحاصل على المستوى الصوتي لبعض الأصوات العربية. أي تبدل أصوات عربية إلى أخرى عربية ضمن مجموعة من الأصوات تشارك مكان وطريقة النطق لتلك الأصوات وحسب اللهجات المختلفة. فعليه نلاحظ أن التبدل الحاصل يكون على مستوى النطق وليس الكتابة. وبهذا يغطي المفردة والنغمة المصاحبة للعبارة والجملة لتصبح جزءا من طبيعة لهجة معينة أو لهجات متقاربة وحسب نوع المؤثرات المكانية والزمانية ولأساليب تداخل بعض الشعوب مع بعض الآتي عن طريق التجاور أو سيطرتها على بعضها البعض وانتقال الكثير من الأمور والصفات التراثية والثقافية من اللغة المؤثرة.

أما النوع الآخر من التبدل الحاصل ويشمل دخول أصوات أجنبية إلى اللغة العربية لتأخذ مكانها بدل بعض الأصوات العربية كما هو موضح في الجدول (2) من الملحق (1). وفي هذه الحالة يكون هناك بُعدا في المسافة النطقية لمكان نطق الصوت وطريقة نطقه لعدم وجود صوت مماثل في النطق في اللغة العربية الحالية*. نلاحظ أيضا أن تبدلا من هذا النوع لم يحدث كتابيا. فالكلمة تنطق بالصوت الأجنبي وتكتب دون تبدل الحرف وذلك لعدم وجود حرف عربي يماثل الحرف/الصوت الأجنبي، كما هو الحال مع الأمثلة أدناه:

/Kan/---> [can], /jadwal/---> [gadwal]

/dajaja/---> [dayaya]; /jum a/--->[zum a]

نلاحظ أن الصوت /j/ يمكن أن يتبدل إلى [g], [y] أو [z] حسب اللهجة وجميع هذه التبدلات وغيرها من هذا الصنف تحدث وفق أسس وقواعد لها ضوابطها وقيودها.

وقد دخلت العربية الكثير من المفردات الأجنبية في حقول كثيرة دون تعريبها خاصة المفردات العلمية والتقنية واللغوية والسياسية.. إلخ. كما هو مبين في الجدول (3)/ الملحق (2). ولم يقتصر عند حدود المفردة والصوت بل تعدى ذلك إلى عبارات أجنبية كاملة ترجمت كما هي حرفيا ولا علاقة لها بالمجتمع العربي ولغته ولكنّ التقدم السريع في مجال العلم والحياة أدى إلى تبدل نمط الحياة اليومية وأصبح دخول هذه العبارات على حالها ضرورة حياتية كما هي عملية في نفس الوقت وكما هو مبين في الجدول (4) من الحلق (2).

إن ما ذكر أعلاه من تغيرات وتبدلات على المستوى النطقي إنما هو صفة من صفات جميع اللغات الطبيعية ويحدث ذلك بتفاوت نسبي من لغة إلى أخرى. وبما أن اللغة العربية هي لغة طبيعية لها حجمها ووزنها الإجتماعي الذي يغطي مساحات جغرافية واسعة فمن الطبيعي أن تدخل تحت مظلة المؤثرات المختلفة من قطر عربي إلى آخر وبالتالي تحدث التبدلات المحتملة وباختلاف المناطق وكما هو موضح باللهجات المختلفة سواء من ناحية التبدلات الصوتية أو المفرداتية أو التعابير والجمل التي يصاحبها في العادة تبدل في النغمة والنبرة الصوتية. وموضوع اللهجات مثبت تاريخيا في اللغة العربية فلا جدال في ذلك. فاللهجات والتبدلات آنفة الذكر صفة طبيعية تصاحب اللغة الفصحى دون عمق في التأثير عليها ضمن نظم التراكيب اللغوية الثلاث.

ويظهر لنا ذلك فقط في النغمة وقوة النبرة أو ضعف النطق لبعض الأصوات وتبديل بعضها إلى أصوات قريبة منها نطقا سواء تكلما أو قراءة ما هو مكتوب بدون المساس بالحروف وأصول الكتابة قطعا. ومن الملاحظ هنا أيضا أن التبدل أو التغير هو نسبي وجزئي كما لاحظنا وليس بالعمق الذي نلاحظه في لغات كثيرة في العالم، بمعنى آخر أنه لا يمس المنطقة المشتركة الناتجة عن تداخل نظم المكونات اللغوية الثلاث الظاهرة في الشكل (1). وهكذا نرى أن اللغة العربية (الفصحى) في كل أنحاء العالم العربي لم تتأثر جذريا على المستويين النحوي أو الصرفي (أو الدلالي) وبالطبع سيعزو الكثير منا هذه القوة التي تقف حاجزا مانعا ضد أي تأثير على لغة القرآن الكريم وإلى القرآن نفسه الذي بقيت لغته ثابتة دون تبدل ولكن اللغة الفصحى تبدلت بعض مفرداتها حسب الزمن والمكان التي تمر خلاله والمؤثرات المحيطة الكثيرة. إذن بقيت التركيبات اللغوية التحتية ونظمها ثابتة مع ثبات مصدرها الأساسي والتي تطرقنا إليه بإيجاز أعلاه. وهكذا نرى أن الذي يتأثر طبيعيا في اللغة هو النطق لبعض الأصوات وحداثة بعض المفردات ودخول أخرى أجنبية إليها ويكون ذلك في الاستعمالات اليومية للغة المنطوقة ضمن اللهجات العديدة. ويبقى الأصل ثابت - أصول اللغة المكتوبة. وقد لاحظنا في أمور اللغة العربية الفصحى أنه يمكن أن تكون قد أخذت النغمة والنبرة المنطوقة من اللهجة المعنية المتأثرة باللغة الأجنبية وذلك عند قراءة ما هو مكتوب أو عند استعمالها في الحالات الرسمية والثقافية نطقا فقط، وعندها يمكن التعرف على قطر المتكلم أو القارىء حسب البُعد الجغرافي والاجتماعي. كذلك يمكن أن يتبنى الفرد أساليب مستحدثة في الكتابة متأثرة بالثقافات الأجنبية وحسب الحركات الفكرية والأدبية وتنوعها في تلك الأقطار وهذا أمر طبيعي أيضا.

نتائج البحث ومناقشتها:

نستنتج مما جاء في دراستنا أعلاه أن التبدلات اللغوية المحتملة الحدوث أمر طبيعي يتناول جميع اللغات الطبيعية وبنسب متفاوتة حسب قوانين لغوية معروفة في الأبحاث اللغوية الحديثة كما هو حاصل في تطبيق النظريات في علم اللغة الحديث وكما بينا سابقا تكون متعلقة بالبعد المكاني (الجغرافي) والزمني وتواجد شروط أخرى لها فاعليتها في كل ما يحدث من تبدل. ولإعطاء فكرة موجزة عن حصيلة النتائج التي توصلنا إليها نذكر أدناه التراكيب اللغوية التي تقع ضمن احتمالات التبدلات التي يمكن أن تحدث في اللغة العربية المنطوقة حسب عمل النظم اللغوية الثلاث ونتائجها السطحية المنوه بها في حصيلة عملية الكلام وتداخلاتها المعقدة، كما يأتي:

1 - أخذ أصوات عربية مكان أصوات عربية أخرى تشترك بخواص نطقية مميّزة نتيجة للهجات العربية المختلفة وحسب بُعد بعض الأقطار العربية أو قربها من بعضها البعض [جدول (1)].

2 - أخذ أصوات أجنبية مكان أصوات عربية إما لسهولة النطق أو التأثير اللغوي الخارجي [جدول (2)].

3 - تبدل معنى المفردة العربية في بعض الأحوال

المكانية والزمنية وحسب متطلبات الحياة اليومية المستجدة وذلك دون أن يتبدل شكلها الكتابي والنطقي مثل «تقني» و«شريحة» و«طبقة»... إلخ.

4 ـ استحداث بعض المفردات العربية التي لم تكن موجودة قبلا وتأخذ هذه المفردات نمط التصريف اللغوي العربي، مثل «خصخصة»، «مهننة»، «جدولة» و«مكننة».. إلخ.

5 ـ دخول مفردات أجنبية إلى اللغة العربية مشابهة في اللفظ لمفردات عربية قديمة مثل مفردة «أطلس» و«صك».. إلخ ولكن بمعنى آخر مختلف جدا.

6 ـ مفردات أجنبية كثيرة دخلت اللغة العربية دون تعريبها وهي كثيرة جدا. بالطبع تأخذ هذه المفردات النبرة العربية مع الأخذ بنظر الاعتبار تبديل الصوت الأجنبي بصوت عربي عند نطقها. [لاحظ الجدول (3)].

7 ـ المفردة الأجنبية التي دخلت العربية وعُربت بمعناها النسبي فقط مثل مفردة «حاسوب» و«حاكي» و«مكبرة صوت» و«مسجّل» و«مصعد».. إلخ.

8 ـ تبدّل النغمة والنبرة العربية المصاحبة للمفردة والعبارة والجملة حسب قرب وبعد الأقطار العربية عن بعضها وخلفية علاقة كل قطر بدولة أجنبية مؤثرة عن طريق أو آخر. كما نلاحظ ذلك وبوضوح تام في النغمة والنبرة المستعملة في أقطار المغرب العربي عند نطق العربية الفصحى والتي هي نفسها في اللهجات وقريبة من النغمة والنبرة الفرنسية.

9 ـ دخول أساليب أدبية أجنبية في الكتابة «الأدبية» "Style" حسب الأساليب الأجنبية المستحدثة والمتبناة في اللغة الأجنبية.

10 ـ العبارة الأجنبية دخلت اللغة العربية بعد تعريبها حرفيا وهي تحمل نفس المعنى الأجنبي لضرورة التواصل اللغوي بعد أن أصبحت دول العالم متصلة مع بعضها تقنيا وعلميا وإقتصاديا.

أما الثوابت التي تمت ملاحظتها والتي لم تتأثر بالظواهر الطبيعية التي ذكرناها أعلاه فهي:

1 ـ الحروف العربية التي بقيت محافظة على أنماطها التراثية في العدد والشكل كتابة مع تبدل بعضها نطقا كما ذكرنا أعلاه وحسب اللهجات العربية.

2 ـ عدم حصول أي تبدل أو تأثير على أصول النحو العربي والقواعد.

3 ـ عدم حصول أي تغيير في أصول علم الصرف وتطبيقات نظمه وقواعده.

4 ـ بقاء علم النظُم الصوتية وأصول النطق للأصوات العربية وعلم الصوتيات العربية كما هي دون تبدل.

5 ـ حافظ فقه اللغة العام للعربية على أصوله وجذوره العميقة وكذلك الحال مع علم المنطق في اللغة العربية.

وهكذا نرى أن مجموعة النظم اللغوية العربية وقواعدها لا تتأثر بقدر ما نراه في حصيلة تطبيق هذه النظم وقواعدها. فمثلا عند دخول أصوات أجنبية ضمن حدود النظام الصوتي للغة الأم عندها إما أن تتبع الأطر أو النماذج الصوتية العربية وقواعد

استعمالاتها أو أن تنفرد وتشذ عن دائرة تلك الأطر أو النماذج وبالتبعية تبقى خارج ذلك النظام. أي تبقى هذه الأصوات المنفردة خارج النظام الصوتي العربي. فمثلا الصوت /g/ يعرب الى [j] «جيم» أو [غ] «غين» أو [y] «ياء» وحتى في كثير من الأحيان يتحول إلى [k] «كاف». فعليه نرى في العربية الفصحى مكتوبا بواحد من هذه الحروف التي تمثل الأصوات المذكورة في العربية مستعملة حسب اللهجة، لذا نلاحظ أن الصوت /v/ الأجنبي يبقى بعيدا عن دائرة الأصوات العربية وأحيانا كثيرة يختلط مع الصوت العربي /f/ «فاء» وهكذا الحال مع الصوت الاجنبي /c/ والصوت /p/ والصوت /z/ والتي يأخذ مكانها في الكثير من الحالات الأصوات العربية /j/ «جيم» و/b/ «باء» والصوت /j/ أو /S/ العربية على التوالي... إلخ.

وقد تمت ملاحظة أخرى في هذا المجال وذلك أن بعض الأصوات الأجنبية التي لها مقابل مشابه في العربية تأخذ مكانها دون لبس في النظام الصوتي العربي كما لاحظنا أعلاه.

ويصبح الأخير أكثر استعمالا من الأصل مثل الصوت /z/ أو «زاي» الذي له مقابل في العربية يأخذ مكان الصوت العربي /ذ/ «ذال» فعندها تلفظ بصورة غير طبيعية ولكنها تكتب بالحرف العربي الأصل مثل «ذلك» ---> «زلك» لفظا وتكتب «ذلك». وكذلك الحال مفردة «ذكي» ----> «زكي» و.. إلخ، وهكذا الحال مع /Ø/ «ثاء» الذي يختفي ويأخذ مكانه الصوت /s/ «سين» كما هو في مفردة «ثائر» --> «سائر» و«ثامر» ---> «سامر» و«ثلاثة» -> -- «سلاسة».

وتستمر التبدلات في أصوات أخرى مشابهة وتبعا للهجات المستعملة. لاحظ أن مثل هذه التبدلات الصوتية لا مكان لها في النظام الكتابي العربي الحالي. كذلك لا يؤثر هذا التبدل على نظام التراكيب الصوتية للعربية الفصحى المنطوقة والمكتوبة صحيحا. يمكن أن يكون هناك إضافات لقوانين هامشية لا تمس النظام القاعدي للأصوات العربية وبما أن عملية دخول هذه الأصوات كبدائل لأصوات هي في الواقع موجودة في العربية فيمكن عندها حدوث بعض التشوش في التركيبة المفردة من ناحية المعنى فمثلا مفردة «ثائر» لا تحمل معنى «سائر» عند النطق.

وبما أن هذه البدائل تأخذ مكانها في التكلم سليقيا منذ الطفولة ووجود الأصل في حالات كثيرة في نفس اللهجة فبإمكان المتكلم أن يفطن لذلك ويرجع أو يحاول الرجوع إلى الأصل بدل الدخيل عند النطق لتصبح الحالة الأولى (اللهجة) حالة خاصة وليس عامة في نطق هذه الأصوات في المفردات المعنية. وهذا معناه أن عملية التقييم (التقويم) الصوتي ممكنة وبسيطة لتلافي الإلتباس الممكن حصوله عند نطق مفردات خارج سياق الجملة أو العبارة أو ضمنها مثل الإلتباس الحاصل في نطق المفردة «قلم» والتي تصبح «ألم» في اللهجة المصرية وبعض اللهجات اللبنانية والفلسطينية. كذلك الحال مع الكثير من المفردات الأخرى التي ذكرناها أعلاه وغيرها مثل المفردة «حافظ» تصبح «حافز» ومفردة «قش» تصبح «غش» أو العكس هو الصحيح في بعض لهجات دول الخليج. لذا فإن ذلك وحسب اعتقادنا لا يؤثر على اللغة العربية الفصحى سواء كانت مكتوبة أو منطوقة.

مكمن الخطورة على لغتنا يوجد في الأصوات الأجنبية مثل /v/ و/p/ و/z/ و/g/ . . .إلخ وذلك عند النطق فقط. والخطورة الكبرى تكمن في الدعوات الهادفة التي تمس النظام الكتابي العربي ونظم التراكيب اللغوية الثلاث وهي مجرد دعوات تدخل ضمن المحاولات المصنعة الهادفة ولكنها خطيرة جدا في حالة الفوضى الإجتماعية والهدر الثقافي والتراثي والتي يجب إيقافها بكل الوسائل المتاحة خاصة بتبيان الخطورة على الناحية الثقافية والعلمية لكونها حجر عثرة مؤكدة وضياع تراث أمة بكامله وبالتالي تشويه لتأريخ تلك الأمة كما حدث في بداية القرن العشرين للكثير من الأمم التي فقدت لغتها وتراثها وابتعدت عن حضارتها كليا. وأبسط الدعوات لهذه الحركات تتبرقع بتحسين الأحوال الإجتماعية والخروج من «التخلف» (المزمع) في جميع المناطق التي تجد فيها آذاناً صاغية والتي تخضع لأطماع معروفة. أو إن الفصحى صعبة ولا تتماشى مع أحداث العالم المسرعة إلى الأمام. لذا يدعون أن العامية أسهل، وبهذا يطمحون إلى تفكيك اللغة العربية وبالتالي إبعادها عن الحياة اليومية كليا. والرد العلمي بسيط جدا وهو أن أية لغة طبيعية تكتسب سليقيا، وتصبح سهلة الاستعمال اليومي وهكذا بالنسبة للهجات. وبما أنه هناك مجال طبيعي أيضا بالابتعاد عن اللهجات التدريجي وتعويد النفس على اللفظ الصحيح خاصة في بدء مراحل اكتساب اللغة عند الطفل فعندها تصبح العربية الفصحى هي السائدة في السهولة وتصبح اللهجة المتأثرة أجنبيا هي الصعبة وبالتالي الابتعاد عن الاستعمال يؤدي إلى اندثارها كما حدث للكثير من اللهجات العربية القديمة. ونعتقد أن مثل هذه المحاولات تحاول الوقوف ضد تيار طبيعي ولكونها محاولات غير طبيعية فإنها لن تصل إلى أهدافها والتأريخ يشهد على الكثير من الأحداث التي صاحبتها محاولات من هذا النوع مثل سياسة التتريك في العهد العثماني والفرنسة في المغرب العربي أثناء سيطرة فرنسا على هذه المنطقة ليست ببعيدة عنا. إن هذه المحاولات مصنعة ومفروضة لذا تُحدد زمانيا ومكانيا وبصورة طبيعية، مستندة الى الوعي القومي والثقافي كعامل مساعد للتيارات الطبيعية الأخرى للوقوف بوجه مثل هذه المحاولات. ومثل هذا الاسناد مرتبط جذريا بالتراث واللغة وتأريخ الأمة فلدينا في الوقت الحاضر حركات أدبية وثقافية واسعة ومنتشرة في أرض العرب الواسعة ووسائل النشر الثقافية والعلمية أصبحت عاملا أساسياً في انتشار هذا الوعي المطلوب. والحفاظ على الذات اللغوية أصبح حاجة ماسة وواجباً قوميا ووطنياً مطلوب منا المشاركة لغويا في إسناده. لذا نلاحظ أن مقاومة محاولات التغير أصبحت عملية ذاتية متعلقة بالأجيال المتفتحة على المستقبل خاصة الأطفال في المراحل التعليمية الأساسية. والتفاؤل هنا أصبح واردا خاصة وأن أطفالنا أصبحوا يستعملون الكثير من العبارات والمفردات العربية الفصحى دون جهد وأصبحت هذه المفردات والعبارات تحتل الكثير من أصول التعامل التواصلي (الكلامي) اليومي بينهم سواء في الدراسة أو الحياة البيتية أو البيئية اليومية. وهكذا اختفى الكثير من المفردات والعبارات العامية التي كنا نستعملها ونعيشها في الماضي القريب وأصبحت في عداد النسيان.

مع كل ما جاء أعلاه والذي يوحي بالتفاؤل نقول أن الموضوع يحتاج إلى وقفة واعية دائمة للحد من المحاولات المصنّعة وعدم افساح المجال لها بأخذ أي حيز من حياة أطفالنا بالتأثير عليهم المباشر أو غير المباشر، وذلك باستغلال التقدم التكنولوجي للغة «المرئية» و«المحكية». ولنكون في موقف الحيطة والحذر في عصر التقنيات العلمية المتقدمة والقوى الاقتصادية المؤثرة للحفاظ على الذات اللغوية وديمومة نظمها للعمل والاستمرارية في التحرك دون أن يشوبها أي تعثر هادف.

وكنتيجة للحصيلة المستخلصة من بحثنا هذا نقترح ما يأتي:

1 ـ الاهتمام بالطفل واللغة ومناهجها: بما أن اللغة هي حاجة طبيعية للتواصل الاجتماعي نطقا وإيصال المعلومة إلى الآخرين سليقيا لسد الحاجات الأساسية للفرد وبالتالي بين أفراد المجتمع ككل نرى وجوب الاهتمام بتربية الطفل لغويا منذ بداية الوعي اللغوي لديه أي منذ المراحل التي تسبق الروضة والتعليم الأساسي وتستمر هذه الاهتمامات خلال مراحل التعليم المختلفة وخلق وتوفير كل المستلزمات والمتطلبات اللغوية خاصة المشوقة منها وبالتحديد في المراحل الأولى للتعليم والتعلم حسب النظريات التربوية واللغوية الأكثر حداثة والمضمونة النتائج. ومن هذه الاهتمامات بذل المجهود الكافي لتحسين وتطوير المناهج اللغوية والتركيز على تنمية القدرات اللغوية لدى الأطفال سواء أكان على مستوى انتقاء القصص المتدرجة في إنماء القدرات اللغوية لدى الأطفال أم على مستوى الأسلوب المبسط والإخراج المؤثر والمشجع على استمالة الطفل للاستحواذ على اللغة دون دراية منه. ثم يأتي بعد ذلك دور الإبداع اللغوي في الكتابة والخطابة والتكلم.

2 ـ يعتبر المعلم المثقف تربويا ولغويا العامل الأساسي في إنجاح المهام المخطط لها تربويا والمؤثرة في عملية التعليم اللغوي المطلوب. لذا نقترح الاهتمام بالمعلم لغويا بجانب المتطلبات التربوية والأخلاقية الأخرى.

3 ـ وإذا ما توفرت متطلبات الفقرة (2) أعلاه نرى أن يبتعد المعلم المتمرس لغويا عن كل ما يعرقل إمكانية الطفل من التعبير نطقا عن خواطره مستعملا قدر الإمكان اللغة العربية التي يستعملها أهل الإعلام المرئي والمنطوق ومن ثم يحاول التركيز فيما بعد على العربية الفصحى. كذلك يركز على عدم تشجيع استعمال العامية سواء داخل الصف أو خارجه ومساعدة الطفل على التمكن من القراءة المسموعة السليمة.

4 ـ تقييم علمي لغوي وتربوي للمعلم ومن ثمة الطفل ومتابعة ذلك من قبل متخصصين في الحقلين اللغوي والتربوي ـ التعليمي مع الاستمرار في عملية التشويق اللغوي النفسي للمعلم والطفل أثناء عملية التعليم والتعلم.

5 ـ إدخال الأساليب التربوية الحديثة المبنية على أساس إيصال المعلومة الصحيحة أو تلقيها وحسب وسائل الإيضاح المتقدمة تقنيا وعلميا ويكون ذلك على مراحل التعلم المختلفة، خاصة التركيز على مراحل تعليم وتعلم مهارات اللغة الأربعة وهي: الإصغاء ـ التكلم ـ القراءة ـ الكتابة.

6 ـ الإنتباه الجدي إلى نوعية ما يعرف الآن بـ«اللغة

المرئية والمسموعة (وإلى حد ما «المقروءة») والمستوى العمري والذكائي للطفل بجانب الخلق والإبداع في برامج أغاني وأناشيد وموسيقى الأطفال وغيرها في التلفاز والحاكي ورصد ميزانية سخية للتلفزة التربوية وما يتناسب مع المستلزمات والمتطلبات التربوية لكل مرحلة من مراحل التعليم.

7 ـ إنشاء مسارح خاصة بالأطفال يكون للأطفال فيها دور مميز في التمثيل مع التأكيد على سلامة اللغة المنتقاة ويكون للأغنية العربية مكان مرموق في المسرحيات.

8 ـ إصدار المجلات التربوية الخاصة بالطفل يساهم فيها الأطفال المبدعون نسبيا مع نشر حلقات من القصص العربية التراثية وغيرها بجانب القصص العالمية التربوية في هذا المجال يؤكد في إصدارها بأن تكون مصورة وغير نمطية تباع بأسعار رمزية للأطفال على أن تسند ماديا وإداريا من الجهات التربوية والإعلامية المسؤولة في الدولة.

9 ـ توحيد المناهج والمفاهيم اللغوية في المدارس الرسمية والخاصة على المستوى القطري على الأقل ويكون ذلك تحت إشراف لجنة متخصصة لها خلفية علمية في النظريات اللغوية الحديثة وعلم اللغة العام وعلى اكتساب اللغة عند الطفل.

10 ـ تشجيع المنافسات اللغوية بكل أنواعها خاصة بين المدارس الإبتدائية والثانوية بتهيئة كل ما تحتاج إليه هذه المنافسات اللغوية من مختصين إلى جوائز تشجيعية وعلى مستويات مختلفة.

11 ـ أن تكون هناك مؤسسة مسؤولة في الدولة ـ ولتكن في وزارة التربية ـ فيها أعضاء من وزارة التعليم العالي ووزارة الإعلام لهم خلفية جيدة في مجال اللغة والأدب ولها صلة بأدب الأطفال ولغتهم، بجانب تخصصاتهم المطلوبة. وتكون بمستوى مديرية عامة تعنى بكل ما جاء في الفقرات العشر أعلاه ولا تتبع الأساليب التربوية النمطية المعروفة وتلتزم بمسايرة العصر ومتطلباته المتغيرة دوريا إن لم تكن يوميا وبسرعة مما يتطلب المتابعة والتغيير في الأساليب التربوية والتعليمية بين فترة وأخرى وحسب الحاجة الآنية للتقدم العلمي والتقني.

12 ـ إشراك اللغويين المتخصصين في اللغويات الحديثة والمعروفين على مستوى البحث العلمي في مجامع اللغة العربية في الوطن العربي.

أخيرا نقول إنه ليس هناك انحسار لغوي كما يدعي البعض، يمكن أن يكون هناك انحسار ثقافي لسبب من الأسباب ولكنه ليس بالضرورة نتيجة لغوية لأن الثقافة والأدب مع ارتباطهما الوثيق باللغة إلا أنهما يكونان حالة خاصة. واللغة ليست حالة وإنما واقع طبيعي يغطي كل المساحات الاجتماعية الواسعة وكل نواحي الحياة اليومية المشتركة في أقطارنا العربية.

نقول إن عصرنا هو عصر التكنولوجيا المتقدمة والبرمجة الإعلامية المعقدة في وسائلها وأقمارها الصناعية التي تغطي مساحات مفتوحة يصعب التحكم فيها أو السيطرة عليها ضمن حدود معينة. فعلينا بالطفل، بمتابعة وتقييم كل ما له علاقة بلغته وعدم السماح بإفساد ذوقه اللغوي لأن اللغة هي تراث الأمة الذي لا ينضب معينه والطفل هو العامل الفاعل في صياغة وبلورة تراث الأمة والحفاظ عليه

عبر الأجيال. وهنا نقول بوجوب الحذر والحيطة. والحذر سمة من سماة طبيعة الإنسان تأتي نتيجة الحرص الصادر عن الخوف من النتائج السلبية التي يمكن أن تصيبنا في حالة وجود خلل ما في تصرفاتنا (وما أكثرها في أيامنا هذه) ومنها تصرفاتنا اللغوية وردود أفعالنا تجاهها. لذا فخوفنا على لغتنا شيء طبيعي وما هو طبيعي في هذا المجال هو حالة مشروعة والحذر والخوف على لغتنا وبالتالي تراثنا هو أمر مفروغ منه ضمن هذه الشرعية.

ملحق (10)

الصوت	البديل	Changes	Phonetic	ملاحظات
ذ --->	ز د	[z] [d] /_	/ð/--->	التبدلات الصوتية الحاصلة كنتيجة لكل قاعدة صوتية تكون مبنية على نوع اللهجة وتقارب مواقع نطق الصوت الأصلي والبديل الحاصل.
ث --->	س ت	[s] [t] /_	/Ø/--->	
ق --->	أ غ	[?] [g] /_	/K/--->	
غ --->	ق	[k]/-	/g/--->	
س --->	ز	[z]/-	/s/--->	
ظ --->	ز	[ẓ]/-	/ð/--->	(Emphatic)
ج --->	ي	[y]/-	/ǰ/--->	

جـــدول (1)

تبدل بعض الأصوات العربية الى أخرى عربية حسب اللهجات المختلفة

الصوت	البديل	Changes	Phonetic	Examples Transcribed Phonetically
ج --->	ك ژ	[g] [ž] /_	/ǰ/--->	/jadwal/ ---> [gadwal] [žadwal] /_
ق --->	ك	[g]	/ḳ/--->	/ḳa:l/ ---> [ga:l]/-
ك --->	چ	[č]	/K/--->	/ka;n/ ---> [ča:n] /_

جـــدول (2)

تبدل بعض الأصوات العربية إلى أخرى أجنبية وحسب تأثير تلك اللغات

ملحق (2)

أدبية	لغوية	فلسفية	علمية	دبلوماسية	عامة	حقول أخرى
دراما رومانسية كلاسيكية ديناميكية فلكلور تراجيديا كوميديا	مورفيمات فونيمات الومورفات فونولجي اكوستيك "liquid features in phonetics"	إيديولوجية برجوازية براغماتية سريالية ديمقراتية فلسفية بيروقراطية	الكترون جينات ساكات صونار كاميرا فيتامينات	دبوماسية بروتوكول اتيكيت قنصل امبريالية ينسكو/ يونسيف	اكسسوار مونتاج كاريكاتير فيلم سيناريو تلفزيون/ فيديو (أطعمة ومشروبات وملبوسات كثيرة جدا أخرى)	تقنية وعسكرية مختلفة وحقول أخرى متعددة
. . . إلخ	. . . إلخ	. . . إلخ	. . . إلخ	. . . إلخ	. . . إلخ	

جـــدول (3)

بعض المفردات الأجنبية التي دخلت العربية دون تعريب

تعابير معربة عن اللغة الإنجليزية	Expressions in English
مناطق ساخنة	Hot spots
الضوء الأخضر	The Green Light
الحزام الأخضر	The Green Belt
السلام الأخضر	The Green Peace
الخط الأحمر	The Red Line
برمجة	Programming
بناء الجسور	To Bridge the Caps
حقوق الأنسان	Human Rights
.	.
.	.
.	.
إلخ	etc

جـــدول (4)

بعض التعابير الأجنبية التي دخلت العربية مترجمة مع تعابير مشابهة كثيرة

المصـــادر :

Brown, R. (1973). A First Language: The Early Stages. Harvard University Press

Lackoff, George (1987). Phonology and Syntax. MIT Press, Cambridge, Mass.

Jackendoff, Ray (1985). Semantics and Cognition. MIT Press, Cambridge, Mass.

هامـــش:

* هناك بعض النظريات التي تؤمن بأن بعض هذه الأصوات كانت مستعملة في لهجات العرب قبل الاسلام. (لاحظ الملحق).